عارف الأرغول

قصة بقلم
رشاد أبو شاور

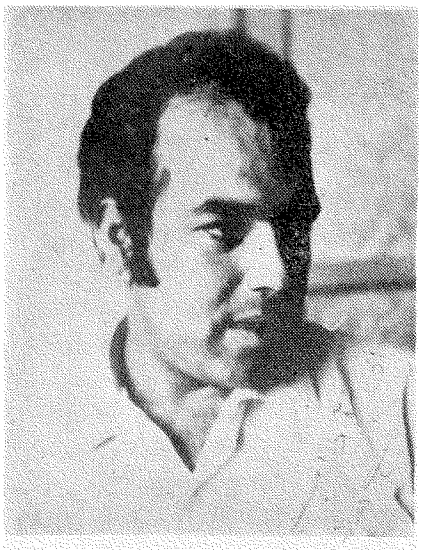

يا قول محمد العبد وانا بكيت
حبيب القلب من بعدك وانا بكيت
خذوك الغدى وعفراك انا بكيت
لعوف العمر عفراق الحبا .. يا . ب
اوف ... اوف ... اوف ...

قال المختار : يا جماعة وين (عبدالله العفش) ملعون ها الوالدين من دون ارغولة الفرح مثل المأتم .

كانت الليلة ظلماء ، لكن السنة النار المتلاطمة تأججت تحت قدر الشاي الكبير ، فجعلت الارض تضاء بلون قان يتداخل في الظلمة ، فيبددها تارة ، وتارة تخفت ، وكأنها تموت فيهب احد الرجال ليلقي للنار مزيدا من (قرامي) حطب الزيتون .

عبدالرحمن مرشد قال : نار الزيتون مباركة لها رائحة ، تقول طالعه من الجنه .

اخذ نفسا عميقا كأنه يريد التهام عبق نار الزيتون .

كان بعض الرجال يتحركون في شتى الاتجاهات باضطراب ، وبعجلة ، ليشعروا المختار بأنهم يخدمون فرح ابنه الوحيد ، وكان واحدهم يرسل نظرة عابرة من طرف عينه ليرى ان كان المختار يشوفه .

ولكن رغم الحركة المفتعلة ظل الجو بلا بهجة ولا الق ، وحين جاءت الحاجة (دلال) اطلقت زغرودة هزت اركان الدنيا ثم اتبعتها بهيهويه للمختار ، فقال عبد الرحمن مرشد :

ـ والله الحاجه دلال ارضعتني صحيح لكن لعنة الله على عظام والدها : .. المختار ذبح القرية وهي مع ذلك تنفخ فيه ، وتكبر رأسه .

صفقت المرأة بكفيها وبدأت تغني والنسوه يتبعنها باصوات فاقدة الحماس .

يا مختارنا يا عزي
يا ابو منسف الرزي
وان اجتك الثوار
اوعا قليبك يهتزي

لكز عبد الرحمن مرشد جاره في الجلسة :

ـ ولك يا محمود عليان سامع الحاجة دلال ؟ فضحت المختار .

قال محمود عليان :

والله شايف هالعرس مثل الطين ، ولن يمر على خير ، الحاجة تذكر المختار باعماله في الثوار .. تفو .. قليل ما عمل لعيـــن الوالدين ..

هب احد الرجال ودس بضع قرميات حطب تحت قدر الشاي ، مد راحتيه الى السنة اللهب ثم سحبهما بسرعة وفركهما ببعض وقال : الله هالله ، يا سلام ما احلى النار ..

. . .

آه يا ليل يا اسود يا ظالم . آه يا قلب ملىء بالغل والقهر . الليلة عرس آخذوها وحياة الله سرفوها عينك .. عينك . لكن معلش .

واخرج عبدالله العفش ارغوله وشرعت انفاسه تمر من القصبتين الصغيرتين الى القصبتين الكبيرتين المتلاصقتين ، وخفقت الاصابع على الثقوب ، فاستيقظت اوراق الاشجار والحمائم والاطفال والنسوة . وكفت الصراصير عن حك اجنحتها بابدانها ، وسكتت تتسمع .

وقال الليل آه ، .

ودفع عبدالله انفاسه ورئتيه وقلبه ودموعه وكل شقاء العمـر ، وهوان العمر ، وقهر العمر ، في قصبات الارغول ، فقال الليل : آه .

وطافت الانغام ـ مثل الصبايا في عرس حقيقي ـ في شعاب الليل ، وبين الكروم ، وعبرت الازقه ، وانسربت من تحت اسقف البيوت ومن شقوق الابواب ، فتشنفت اسماع الرجال وكانت السنة النار امامهم تتراقص فتخترق الليل .

قال عبد الرحمن مرشد : عبدالله العفش نوى على الشر يا جماعة .. سامعين ارغوله . عليّ انطلاق من مليحه بنت الحاج محمود ان قلب الرجل اصبح اقسى من هذه النار التي امامنا .

وجاء المختار .

جال ببصره في الرجال المتمددين على الفرشات والمتكئين على المساند النظيفة . فرك راحتيه : يا اهلا باهل بلدنا ، العرس عرسكم ، مش لابني بس .. والله عرس الجميع ، .

وهمس ارغول عبدالله في اذنيه الحانه ، فكف المختار عن الكلام وارخى سمعه :

ـ يا جماعة .. انا بعثت لعبدالله العفش رسولا خاصا ، دعوته لفرح ابني ، لكنه لم يأت . ونحن لم نفعل معه ما يستحق الغضب .. طيب والله ما لكم عليّ يمين ..

وتوقف المختار عن متابعة كلامه ، وكأنه انتبه الى أنه يتهم نفسه او انه سيذكر الناس بما فعل قبل بضعة اعوام .

نفخ عبدالله في ارغوله : قول انفاسك ايها الارغول العتيق : الحزن وانفضب . (سوف يطيب الموت) وانت يا ايام الهوان روحي الى غير رجعة ، لتكن كل نغمة نصل سكين في قلب المختار . ولتكن في اذنيها احلى من كلمات الام الحنون ، واطيب من العسل في فـم الجائـع .

عتابا يا لحنين وين ودوك
غزالي ولو للنذل اعطوك
لجيبك والله من سابع سما
لو حطوا حرس وعني ابعدوك

وطلع له في سواد الليل طيف والده ، وتقدم اليه ، سبح مثل السحاب في صدر السماء ، فتح ذراعيه وعلى صدره الدم ، ما زال يسيل ، طريا وغزيرا ... عبد الله ، يا بابا المختار دعاني الـــى

بيته ثم بعث للانكليز فجاءوا ، قاتلتهم (بالصواري) حتى خلصت الذخيرة وعندما وصلوني كنت انزف .. لا تنسَ . قتلت غيلة وغدرا ، كنت صغيرا انت ، فلم يكتف المختار بقتلي بل سرق ارضي .. ارضـك .

وامتدت يد والده تمسح بحنان على رأسه، والله كبرت ياعبدالله صرت ملء العين ، باتحب وطفة ؟

فقال عبدالله : آخ يا بابا ، آخ ، الحب موجع مثل السكين اذ تخترق الصدر .

فقال والده : باتحبك هيي ؟ فقال عبدالله : بانحب بعض مثـل الارض والمطر ، مثل الليل والعتابا ، مثل فمي وارغولي ، واحلى واكثر من ذلك . ساله والده تحبها كثيرا ؟ (فراح محمود الى عينيها وثوبها المطرز بالاحمر والاخضر) باحبها يابا ، لما اشوفها نازلة تملأ جرتها من البئر باغضب على الارض لانها تظل ناشفة تحت اقدامها ، ولا تخضر وتنبت العشب ، كي ترتاح اقدامها في السير .

صرخ الاب في سواد الليل : عبدالله انت رجل . لا تجعلهـم يعرفون الفرح .. قتلوا والدك ، سرقوا ارضك ، اغتصبوا حبيبتك ..

قال عبد الرحمن مرشد : عليّ اليمين ان قلب عبدالله العفش ، يلتهب مثل هذه النار ، الله يستر ، .. او اقول لك (وكان يحدث نفسه) خليها تصير ، الى متى يجب السكوت على الظلم بنـت وتحبه ، فلماذا ياخذها المختار لابنه .

الا يكفي كل ما فعله ؟ يكفي .. : لقد جعلنا نرى نجوم الظهيرة .

قال الرجل العجوز لابنته وطفه : لازم تتزوجي ابن المختار ، قالت البنت ، : لا والله يا والدي ، انا اكرهه ،

قال العجوز : انا ليس لي احد في هذه القرية ، نحن فقـراء وضعفاء ، وهو قوي ، جبار ، ظالم ، يستطيع ان يفعل ما يشاء ، عساكر الانجليز دايما في بيته ،

قالت البنت : اطيعك في كل شيء يا ابت ، ولكن ..

قاطعها العجوز بحزم : يا وطفه ترضين لشيبتي الهوان والبهدلة ..

فبكت البنت ووارت رأسها بغدفتها ، واسندت جسدها الـى جدار البيت .

قال لها العجوز ، اعرف ان قلبك يميل لعبدالله .. اشهد امام الله ان والده بطل ، وانه شرف قريتنا ، وابنه يستحق كل خير ، لكن ما باليد حيلة .

ثم شد جذعه المحني ، وقال بحزم ، ليس فيه للعاطفة مكان : وطفة ، انا اعطيت كلمة للمختار .

* * *

يا وطفة الحلوه نزلت تتملي
يا قلبي اشرب المر والخلي
والله لو كنت عني تتخلي
عنك ما اتخلى مهما يسوونا

وفي ايام الحصاد ، مع ضربات المناجل ، دارت الاغاني التـي قالها عبدالله في وطفة ، وانتشرت ، وصار الناس يتشاجرون بالكلام فمنهم من يقول ، عبدالله معه حق ، ومنهم من يقول : عيب .. الحب يجب ان يظل في القلب وحرام التشهير ببنت الناس ...

لكن حب عبدالله ووطفة ، اصبح حديث البلد ، وانتقل من الهمس والسر الى العلن ، وكان الناس يترديدهم الاغاني والاقوال ، ينتقمون من المختار وعائلة (العزاونة) التي تدعمه ، وتنهب خيرات القرى المجاورة ، وتسلط سيف ارهابها على رقاب العباد .. الا ان المختار اصر على تحدي الجميع ، ولم يتراجع عن خطوبة البنت لابنه ، ووجد انه باصراره هذا ، انما يقطع على القرية اي تفكير بالتحدي ، او الخروج على الطاعة ..

* * *

حمل بارودته وطلع على راس الجبل
يا خساره السبع بايد النذل انقتل
مصيرك يا زمن معانا تتعدل
نقتل الخاين ونوخذ ثارنا

نط محمود عليان الى منتصف الحلقة وقال وقد انبسطـت اساريره : يسلم فمك يا عبد الرحمن مرشد .. هذا احلى كلام قلته في حياتـك .

ياالليّ سرقتوا الباروده من ايده ..
بتظنوه مات وانتهى عيده
يا عبد نذل غدر في سيده
بكره تايرجع بيكمل عرسنا

قفز عبد الرحمن مرشد وقال : تعرف يا محمود عليان .. والحكي للجميع ، ليلة امس ، خير والصلاة على النبي ، جاء اليّ والـد عبدالله العفش ـ الله يرحمه في قبره ـ وكان يرتدي ملابس خضراء ، ولكن الدم كان يسيل من صدره .. كان دمه يشخب مثل دم العنز عند ذبحها .. فتح ذراعيه وقال لي ، والابتسامة تملأ وجهه : يا عبدالرحمن انت صاحبي ، تعال اخذك بالحضن .. مشتاق لكم جميعا ، ولكني زعلان منكم .

لماذا ، ؟ لماذا سكتم ؟ لماذا قبلتم الذل والهوان ؟ المختار باعني للانكليز ، .. والذين قادونا خانونا .. دمنا امامكم يا عبد الرحمن انه يصيح بكم ان تلحقوه ، والا فقدتم كل شيء .

وصرخ عبد الرحمن مرشد ، آخ .. اخ يا ابو عبدالله ، واللـه البارود موجود والرجال رجال ، ولكن ، ولكن ، لا تظلمنا ، نحن لسنا نساء لنسكت على الذي جرى ، مصيرنا نفعل شيء .

وسالت دموع الرجل على عرض وجهه ، فمسح دموعه باطراف كوفيته ، ثم غاب في الظلام ، وهو يعلن بصوت متهدج ، والله دمك لن يذهب هدرا .. والله ستعود الفرس لفارسها يا بو عبدالله ..

سكتت النسوه عن الغناء ، واخذت النار تخمد ، بينمـا شرع الرجال ينسحبون الواحد تلو الآخر .. بصمت ، وحزن . لقد هزتهم كلمات عبد الرحمن مرشد عن المرحوم ابو عبدالله ، ثم ان المختار لامر لم يتبينوه قد امر بالكف عن الغناء وباطفاء النار ، وانهاء كل شيء .

* * *

شبك اصابعه واصابعها ، كانا يسمعان وجيب قلبيهما ، ويريان رغم سواد الليل دربهما الذي يسيران عليه ، والذي سيوصلهما الى ارضهما او الى اي مكان لا يطولهما فيه انتقام المختار واسياده عائلـة العزاونه .

قال لها عبدالله : سوف نعود الى القرية ذات يوم .

قالت وطفة : وممنا اطفال كثار ، واحد له اسم المرحوم والدك ، وبنت لها اسم المرحومة امك ..

قال لها عبدالله : وآخذ ارضي التي اغتصبوها ، ونبني لنا على ترابها بيتا من الحجارة البيضاء الناصعة .. انقلها حجرا حجرا وابنيها حجرا حجرا .

قالت له : انسيت اولادك الذين سيعاونونك في بناء البيت ..؟

فابتسم ونقل حرارة قلبه وفرحه الى اصابعها فقالت في الليل : آه .. آه .

وعندما وصلا الى قطعة الارض التي لهما والتي اغتصبت ، قال لها : ما رأيك ان نرتاح قليلا هنا ..

فادركت احاسيسه وعرفت ما يريد . قالت نرتاح هنا يا عبدالله ..

جلسا .. واصابعهما متشابكة ، ثم تمددا على ظهريهما وبعد قليل بدأ القمر يطل من نهاية الافق البعيد .. ويكبر .. ويرسل ضوءا كثيرا . وكانت انغام ارغول عبدالله تذوب في ضوء القمر وتعود فتتغلغل في التراب .. وكان البناء البهي الناصع الذي تحدثا عنه يتشكل امامهما على قطعة الارض .. الارض التي لهما ....

فلسطيـن — رشاد ابو شاور